الديني والعالم الاجتماعي

غرس الله عبد الحفيظ

أستاذ مساعد ا قسم علم الاجتماع كلية العلوم لاجتماعية جامعة وهران 02

بدأ القرن العشرون وبدأت معه العلوم الاجتماعية تنشط في البحث، والتساؤل عن ظواهر صارخة في وعي الفاعلين، وممارستهم وتلقي بثقلها التاريخي والماورائي على وتيرة الحياة، ومجمل تصورات العالم.

هكذا كان الدين[1] في بدء هذا القرن، هاجساً علمياً ومعرفياً، سخر له أباء علماء الاجتماع الأوائل جهودهم النظرية، حيث كان منطلق مشاريعهم ومركز اهتمام أولى بالنسبة للمؤسسين لعلم الاجتماع في بداياته الأولى ولا ضير إن أقررنا أنّ ولادة علم الاجتماع، كانت في مهد الدين، ومن ثم كان علم الاجتماع الدين على يد كل من دوركايم[2] /فيبر/ مارسل موس ... كجسور ممتدة تكشف عن امتدادات النظام الديني وتمظهرات المقدس في إحشاء وأشكال الحياة الاجتماعية.

هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية هذا الفضاء، كمحدد جوهري يقوم بتحديد أنساق قيمية، لضبط وتوجيه الفعل الاجتماعي بواسطة نظم الشعائر والطقوس والرموز. ومن ثم يتم بواسطة هذه العملية صنع كل معنى للحياة وتصور للعالم.

وبعد الجيل الأول من علماء الاجتماع، ولفترات متباعدة، غابت الدراسات والاهتمامات المعرفية وشحت الساحة العلمية من أي أثر مرتبط بالمقدس والأشكال الدينية، وعلت إيديولوجية انمحاق الديني بفعل نماذج العلمنة والحداثة وشيوع نمط التفكير والتنظيم العقلاني.

وفي هذا الهزيع الأخير[3] من القرن العشرين، كان الطابع المميز هو عودة الديني واكتساحه النظام العام. وفي خضم التحولات العميقة في المجتمعات التي انخرطت في مشروع الحداثة، حيث انبعث الديني كأسلوب لاستحضار اللحظة التاريخية، لحظة بعث المقدس وكشكل من الأشكال مقاومة الهيمنة التي تفرضها قيم الحداثة.

عبّر هذا الحضور المتميز، تشكلت علاقة متداخلة بين الديني الذي يمثل العمق التاريخي السحيق، والحداثي كنتاج سيرورة من التطورات شهدتها المجتمعات هي الآن على عتبة قمة التاريخ.

الديني والحداثي قطبان يستبطنان جدلية الحنين إلى البدء والتطلع نحو التقدم، جدلية تعددت تموضعاتها السوسيو–ثقافية والسياسية، واتخذت لنفسها لبوسات متلونة بألوان الصراع والتضافر والتنافر. وبناء على هذا، تراكمت الدراسات المتخصصة والمعمقة، لرصد وتحليل ديناميكية المقدس وتمثلات الفاعلين له، في مختلف المواقع الاجتماعية، و كشف الدلالات والتعابير المتضمنة في السلوك الديني، الذي عادةً ما **يتمظهر** في الدنيوي أو بالأحرى في الاجتماعي.

فالهم العلمي الذي بات يعكف عليه التفكير العلمي والاستشرافي، هو البحث عن أفاق هذه العلاقة وطبيعتها والنمط أو النظام الذي سيقوم مع تزامن القرن القادم. ما هي التخوم التي ترتب نطاق الديني والحداثي وهل ثمة تخوم أصلاً ؟

الديني دلالات وأبعاد

في قراءة للأدبيات السوسيولوجية والأنثروبولوجية نلحظ استعمالات شائعة لمفردة المقدس والديني كأدوات بحث [4] ومقولات نظرية للكشف عن مجمل الممارسات في المجال الديني. وللتميز بين هذه الاصطلاحات العلمية بيّن Boudon [5] في قراءته للنظرية السسيولوجية الدينية عند دوركايم أنّ هذا الأخير قد ميز بين عالمين متقابلين هما عالم المقدس وعالم الدنيوي في التفكير الديني. [6]

إنّ المقدس هو أخص من الديني حيث يندرج في إطار المحيط الديني، وهو يتولد من إحساس ديني جدّ متميز يتسم بالعظمة والرهبة والإجلال ينعكس على الفرد في شكله التقديسي.

تبدو المقاربة الدوركايمية للمجال الديني بناءً على مفهوم المقدس منتزعة من نزعة اجتماعية تضفي على المجتمع[7] الكينونة والأصل لكل ما هو الديني. هذا ما ينعكس جلياً في الدراسة التي أجرها دوركايم في كتابه "الأشكال الأولية للحياة الدينية" التي يحاول فيها تفسير الظاهرة الدينية من خلال منطق الوعي الجمعي مع تأكيده في سياق هذه الدراسة على أن أنساق التصورات الأولى للإنسان حول

العالم كانت ذات طبيعة دينية. فالدين كان يمثل بالنسبة لدوركايم مدخلاً حيوياً للكشف عن الحقائق الاجتماعية انطلاقاً من الميراث التاريخي الذي يعكسه الدين.

جوهر المفهوم الديني[8] يتمثل في فكرة الماورائي Surnaturelالذي يحدد معنى لكل ما هو ديني، وهو كل شيء يتجاوز مدركاتنا، هو عالم الغرائب، لا معروف ولا مفهوم، وبالتالي فالدين في ذاته عبارة عن بحث تجريدي عقائدي يفلت من العلم والتفكير المنهجي.

فأي نظام ديني يتضمن هذا البعد الماورائي الذي يجعله متميزاً عن النظم الاجتماعية الأخرى ويتمظهر في كل الطقوس والشعائر والسلوكات الدينية التي تحمل هذه الدلالة إذ تنطبع في مرآة المجتمع فمن هذه الفكرة يستمد الديني وجوده وسلطته الرمزية والروحية على الأفراد ويبلور نسيج الوعي الجماعي.

خلاصة دراسة دوركايم هي أنّ الدين هو شيء للغاية اجتماعي، والتصورات الدينية ما هي إلا تصورات جماعية[9] تعبر عن حقائق جماعية، وعن طريق هذه القنوات تتشكل الحياة الاجتماعية بكل إفرازاتها كظواهر تكون موضوع علم اجتماع [10].

المعالجة الدوركايمة في نظريته السسيولوجية الدينية مثلت مقاربة مبتكرة في التحليل الاجتماعي للمعتقدات الجماعية[11]. فالديانات هي عبارة عن انساق تصورات للعالم حيث ينخرط الأفراد في تبني هذه التصورات. ينضاف إلى هذا تركيز الصياغة الدوركايمة في تحديد مفهوم الدين على المؤسسة الدينية ممثلة في الكنيسة.

« Nous arrivons donc à la définition suivante : une religion avec un système solidaire de croyance, et de pratique relative à des choses sacrées, c'est à dire, séparées, interdites, croyances et pratiques qui unissent en une même communauté morale appelée église. Tous ceux qui y adhèrent. Le second élément qui prend ainsi place dans notre définition n'est pas moins essentiel que le premier, car en montrant que l'idée de religion est inséparable de l'église, il faut pressentir que la religion doit être une chose éminemment collective»[12] .

يحيل هذا التحديد إلى مفهوم المؤسسة الدينية الذي يكرس معنى الفعل الاجتماعي ذا الطبيعة الدينية من خلال نسيج الوعي الجماعي المتفاعل بوثيرة تخلص إلى بلورة النسق Le système، وعليه يمكن تحليل النظم الدينية وأشكال التمثلات والممارسة ذات الانتماء الديني إلى هذا الحضور المتمثل في المؤسسات وبنيتها وآليات سيرها وارتباطاتها المجتمعية، المحددة رمزياً وحتى موضوعياً، حيث يتأكد استمرارية الديني وأدواره وحجم التفاعل مع النظم الأخرى السياسية والاقتصادية بمعنى أخر مدى تعلق الروحي المتمأسس بالزمني المعقلن.

فالتجربة الدينية تتجسد في نسيج الفعل الاجتماعي[13] الذي يساهم في إعطائها معنى معيّناً. الحديث عن الدين يؤدي بنا إلى الكشف عن مجال يستغرق أنشطة وأشكال ورموز في غاية الأهمية الأفراد والجماعات. فالظاهرة الدينية تحمل في طياتها عناصر حيوية وتصورات محركة لعمليات النشاط في الميادين المختلفة.

هذه التصورات الجماعية هي الآليات الأساسية في أداء العملية الاجتماعية القائمة على توفر جملة من الرموز والتصورات المنوطة بتحقيق الضبط الاجتماعي وضمان حداً معيّناً من الرقابة والتوجيه. الفعل الديني منخرط بذاته في مناحي الحياة الاجتماعية عن طريق المشاركة بدل الانسحاب[14].

إذن البحث في الديني قبل البحث في الدين. والديني من منظور البحث العلمي يخترق الاجتماعي بالكامل. فهو يبدو كشكل امتيازي ومنتظم لفعل الإيمان معبئاً مرجعية السلالة الإيمانية التي يمكننا آنذاك ضمن فضاءات معينة، أن نسوغ لأنفسنا إطلاقاً اسم الدين [15].

وفي هذا السياق توجهت الدراسات في علم الاجتماع الديني توجهاً وظيفياً إذ ركزت على استجلاء وظيفة الدين والقيم الدينية وعلاقتها بالنظام الاجتماعي. يمكن حصر وظائف الدين في النقاط الرئيسية.

أولاً : يعطي الدين للإنسان مجال مفتوح في رؤيته للوجود[16] وتمثله للعالم. من خلال كل ما تحمله الحياة الاجتماعية من مآسي وإحباطات ونكوصات. يجد الأفراد في العالم الآخر والحياة بعد الموت رضا وقناعة الاستمرار في البقاء مما يجعلهم بإيعاز من الدين، يتجاوزون الوضع الراهن وينفعلون ويتفاعلون بإيجابية مع كل المستجدات، إنّ الدين يعقد مصالحة بين الوقع والفرد، وبين الوجود والوجوب، بين المعاش والمأمول. يشهد التاريخ الاجتماعي لمختلف الجماعات أن كافة العمليات الاجتماعية التي تشكل نواحي الحياة

الاجتماعية عبر البناءات والنظم لم تنفك في صلبها وعمقها عن الاهتمام أو التأثر بنسق القيم الدينية في جمعنة الأفراد Socialisation الديني مثل الشق الثاني للنسق الثاني أي الشق الاجتماعي.

ثانياً : يحقق الدين ونسقه القيمي علاقة ذات طابع أفقي تتجلى في الاتجاه العلوي الذي يتم في نظم الطقوس والشعائر. بحيث أنه يوفر قاعدة وجدانية ترسخ الأمن الداخلي، وتأكيد الهوية الأصلية، ينعكس فعلها في إحداث توازن فردياً وجماعياً وجعله فرداً قادراً على الشعور بأبعاده إنسانياً واجتماعياً. ومن خلال هذا الدور يقف الدين في موقع حاسم مناقض لكل أشكال الصراع من أجل الجاه والثروة والسلطة. مما يضفي حالة تضامنية في مواجهة الحالة التصادمية التي تشد الأفراد نحو تحقيق حاجيتهم العضوية والمعنوية، هكذا يحقق الدين بشحنه الروحية وأنساقه المعيارية والقيمية أجواء اجتماعية مستقرة تسمح وتفرض معنى البقاء الاجتماعي واستمرارية الوجود الإنساني تاريخياً.

ثالثاً : يؤدي الدين إلى تكريس نظاماً للقيم والمعايير في المجتمع بصورة تقديسية يتحقق بموجبها عنصر الضبط الاجتماعي وتتم الحيلولة والحد من الاندفاعية والأنانية والفردية الضيقة إذ أنّ الامتثال لسلطة دينية مصطبغة بهيبة القداسة يجعل للدين دوراً في تأطير الكثير من الظواهر والسلوكات التي تذهب مذاهب الانحراف والشذوذ. ويأتي هذا بواسطة المؤسسات الدينية والهياكل حيث يتموقع الخطاب الديني ويصدر خارجياً ليسكن مخيل الأفراد. وتتحدد مقدرة الخطاب الديني في تشكيل كوابح اجتماعية قاهرة تمنع أشكال من الامتداد السلوكي الناشز وتحول دون الوقوع في مخاطر تفسخ النسيج الاجتماعي العام المعترف به من خلال ما يستبطنه الخطاب الديني من محمولات غيبية ثنائية :

الوعد/الوعيد، المحظور/المباح، الجنة/النار، الرضا/الغضب. تصبح اللغة الحاملة لهذا الخطاب سلطة مقدسة غنية بالرموز والإحالات الموجبة والمؤكدة لهذه الثنائية.

رابعاً : يمثل الدين نظاماً معرفياً يشبع قلق الأفراد و تساؤلاتهم الوجودية والمصيرية. كما أنه يرسم لهم مجال ثابت من الانتماءات المهمة حول البدايات الأولى للحياة والنهاية اللامحدودة. يسعى الدين من خلال ترسانته التقديسية إلى ربط الفرد والجماعة بالمطلق وهذا الدور مهم في زمن يتميز بالتغيرات الاجتماعية السريعة وبالحراك الاجتماعي على كل الأصعدة. ومناهضة للتيار العدمي والعبثي في تصور الحياة الذي ينفي أي قيمة ثابتة أو الثابت في القيم، مما أفضى إلى بروز الكثير من التوجهات والحركات الاجتماعية المتمردة والهدامة للبناء الاجتماعي، عنصرياً، إنسانياً، اقتصادياً. ففقدان فكرة الغائية في بناء تصور للوجود الإنساني والحياة من شأنه جعل اتجاهات كثيرة تفضي إلى أشكال من العنف والفوضى والتذمر الذاتي والاجتماعي.

إنّ مفهوم الألوهية كرؤية غائية، يمثل مقصد إنساني راسخ و متجذر في الكينونة الإنسانية. يحدث فعالية في الفعل الإنساني في مختلف الساحات الاجتماعية ويحول مسيرته الحياتية والتاريخية في اتجاه تقدمي. وهنا يبرز هذا الحلم الرائد الذي يحرك حشود بشرية وجماعات لتحقيق ما هو أفضل والوصول إلى ما هو مطلق، وهذا نجده متأصل في معنى الألوهية.

فضلاً أنّ الثبات في القيم الإنسانية، التي تقبح القبيح وتحسن الحسن وتتفادى الألم وتبحث عن السعادة وغيرها من القيم التي ينتجها النظام الديني ويصبغها بحالة من القداسة ليرسخ بقاءها وثباتها حفاظ على الكينونة الفردية والجماعية كإجراء عملي يوجه العلاقات والسلوكيات مما ينسجم مع خط الحقائق الكبرى.

هذا وليس للدين كنسق قيمي ومعطى اجتماعي يتمثله الأفراد في مختلف الأوضاع والمواقف، هذه الوظائف الإيجابية فحسب. بل ثمة وظائف عكسية قد تنتجها التصورات والممارسات الدينية ضمن أطر اجتماعية معينة لها محدداتها وآلياتها المنتجة لها، نذكر بعض الصور التي قد تؤديها تمثلات دينية في اتجاه سلبي، ومن الآثار السلبية لمثل هذه التمثلات ما يلي:

أولاً : أنها تكرس المحافظة على النظام القائم، الذي يعرقل أي محاولة تغيرية أو قوى احتجاجية تسعى إلى نقل الأوضاع إلى ما هو أفضل، أو تخليص شرائح من حالة لا عدل اجتماعية. بحيث تؤدي المؤسسة الكهنوتية إلى نوع من السلطوية، يجهض أي فعل يهدف إلى تجاوز الواقع، إذ تصبح عنصر ثبات يركز على ما هو موجود ويحول دون التقدم الفكري في العديد من الاتجاهات بما في ذلك الاتجاهات الدينية نفسها.

ثانياً : تعطي الوظيفة الإنتمائية للفرد والجماعة، نوع من الولاء الديني الذي قد يتناقض مع تكوين هويات أخرى ضرورية، قد تقتضيها الوضعيات الجديدة، التي يجد فيها الناس أنفسهم. ذلك أنّ التركيبة المجتمعية تقوم أيضاً على هوية أثنية، أو عرقية، أو ثقافية، في مجتمع آخر. وقد يتحول الانتماء الديني خصوصاً في المجتمعات المتعددة الأديان إلى صرا عات أهلية خطيرة.

الهوامش:

1. بيار أنصار : الإنسان والمقدس، دار محمد علي الحامي 1994. ص 80.
2. Jean-Paul Williams : Sociologie des religions, PUF 1994. P 76.
3. Gilles Kepel : La revanche de Dieu, Points actuel-seuils 1993. P 259.
4. A. Dumas : Le sacré. in encyclopédia universalis. V 20. P 456.
5. Boudon : Les formes élémentaires de la vie religieuse, une théorie toujours vivante. in L'année sociologique n° 01, 49, 1999. P 173
6. Op. cité
7. Claude Rivière : Les formes élémentaires de la vie religieuse, une mise en question. Op. Cit. In L'année sociologique. P 136
8. Emile Durkeim : Les formes élémentaires de la vie religieuse. Quadrige. PUF 3ème Edition. 1994. P 65
9. Op. Cit. P 13.
10. Lalaoui A. Zaouias et Confréries : histoire et impact sur la société algérienne exemple de l'ouest algérien. Université d'Oran. Projet de Recherche Code V 3101/36/97. P 13-14.
11. Boudon. Op. Cit. P 178.
12. Emile Durkeim. Op. Cit. P 65.
13. ريمو بودون، ف. بوريكو : المعجم النقدي لعلم الاجتماع ترجمة دكتور سليم حداد. ط 1986. ص 316.
14. عبد الباقي الهرماسي : علم الاجتماع الديني، المجال – المكاسب – التساؤلات، في ندوة الدين في مجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية ط1 1990. ص 17
15. Danièle - Hervieu- Legard : in M.R.A.S. 1997. P 12 – 8 العالم العربي في البحث العلمي عدد
16. Op. cité, Laloui A. P 17.